جامعة
المنصورة
كلية الآداب

التبادل التجارى بين طرابلس الغرب وبلدان الصحراء الإفريقية منذ القرن الثالث وحتى القرن التاسع الهجري (٩-١٥م)

إعداد
دكتور/ وليد على محمد السيد الطنطاوي
دكتوراه فى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب – جامعة المنصورة

مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة
العدد الرابع و الخمسون – يناير ٢٠١٤

التبادل التجارى بين طرابلس الغرب وبلدان الصحراء الإفريقية منذ القرن الثالث وحتى القرن التاسع الهجري (٩-١٥م)

د/ وليد على محمد السيد الطنطاوي

ملخص البحث:

يعرض الموضوع لفكرة التبادل التجاري بين طرابلس الغرب بصفتها من أهم المركز التجارية في الشمال الإفريقي وبين بلدان الصحراء الافريقية ، ومسار القوافل التجارية في الصحراء، ودور الخوارج والمرابطين والموحدين والدولة الحفصية في عملية التبادل التجاري خلال فترة البحث من القرن الثالث الهجري وحتى القرن التاسع الهجري.

الكلمات الدلالية: الصحراء، السلع، طرق القوافل، طرابلس الغرب.

Abstract:

This topic displays exchange trade idea between western Tripoli as it is one of the most important centers for trade in north Africa, and between the countries of the desert Africa, and trade caravans in the desert track , and the role of Alkhwareeg and Almorabteen and Almowahadeen and state Alhafsia in the process of trade during the research period from the third century AH and until the nineteenth century AH.

The exchange trade between western Tripoli and the countries of the desert Africa from the third century AH and until the nineteenth century AH.

مشكلة وأهمية البحث:

يعالج هذا البحث حركة ومسار التبادل التجاري بين طرابلس الغرب وبلدان الصحراء الأفريقية، وطرق القوافل التجارية وسلع الصحراء، ودور الخوارج في عملية التبادل التجاري.

أسئلة وأهداف البحث:

ما هى العناصر السكانية المؤثرة في التبادل التجاري في الصحراء الإفريقية ؟، وما هي طرق القوافل؟، وما هي سلع الصحراء؟.

منهج البحث:

سيتم دراسة الموضوع من خلال منهج السرد التاريخي، والمنهج التحليلي.

نتائج البحث:

يخلص هذا البحث إلى أهمية التبادل التجاري بين طرابلس الغرب وغيرها من مراكز التجارة الليبية وبلدان الصحراء الإفريقية، فهي ليست منطقة عبور بل منطقة إنتاج أيضا، ودور الطوارق في التجارة، وقيمة تجارة الذهب والملح عبر الصحراء، حيث تم استخدام الأخير عملة يتصارف بها.

المقدمة:

إن الاتصال والتفاعل بين طرابلس الغرب وبلدان الصحراء الإفريقية يعود إلى عهود قديمة[١]، ولكن لا توجد دلائل قوية على وجود نشاط تجارى واسع قبل القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي بين أقطار الشمال والجنوب عبر الصحراء[٢]، ولذلك نتناول الموضوع فى الفترة من القرن الثالث وحتى القرن التاسع الهجرى/ التاسع وحتى الخامس عشر الميلادى منطلقاً لهذا النشاط الواسع الذى تمدنا به المعلومات الواردة

---

(١) **لوت هنري** : لوحات تسيلي ، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبري قبل التاريخ، ترجمة أنيس زكي حسن، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٦٧، ص ١٤٥-١٦٦ ؛ لوت هنري : الرسوم الصخرية في الصحراء الكبري، في كتاب الصحراء الكبري ، (مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٧٩م) ص ٨- ١٠٧ . وقد ورد عند هيرودوت إشارات عن وجود اتصالات بين بلاد المغرب وبلاد السودان ترجع إلى سنة ٥٠٠ ق .م. انظر بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة الهادى أبو لقمة – محمد عزيز ، بنغازي، جامعة قاريونس، ١٩٨٨م ، ص٤٧، ٧٩.

(٢) **د. إبراهيم محمد أحمد بلولة:** الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبري وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، مجلة دراسات دعوية، طرابلس ، ليبيا، العدد٩، فبراير ٢٠٠٥، ص ٦٤.

بكتب الجغرافيين والرحالة المسلمين، إضافة إلى ما يمكن أن نستخلصه من المصادر التاريخية.

محتوى البحث:

لما كان العنصر البشرى هو البداية والغاية لعمليات التبادل التجاري بمختلف مراحلها خلال فترة البحث، فمن الضرورى أن نشير هنا إلى أن العناصر البشرية للصحراء الكبرى ليست البربر وحدهم، ولا العرب وحدهم، ولا السود الأفارقة وحدهم، بل كل هذه العناصر وما توالد منها مجتمعة، قد ساهمت بطرائق متباينة وأشكال مختلفة فى تنشيط حركة الإنتاج والتبادل التجاري(١).

كما أن الصحراء تقاسمتها زناتة شرقاً، وصنهاجة غرباً، بينما انتشرت العناصر السودانية فى الجنوب، أما العرب فقطنوا أماكن متفرقة، ولاسيما فى شمال الصحراء، وكل هذا حدث إبان العصر الوسيط(٢)، على أن الهجرات المتعاقبة والتنقلات الاضطرارية لظروف اقتصادية أو سياسية لا تجعل تنظيم جدول زمني لكل مجموعة وحدها سهلاً، إضافة إلى أن الامتزاج بين هذه المجموعات قد بلغ أحياناً حداً انتهت فيه بعض العناصر إلى الانصهار الكلي فى بعضها، كما هو الشأن فى

---

(١) **الإدريسي:** نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت) ص ٩٩؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، تحقيق الدكتور. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج١٠ص٥٧٨؛ وقارن يسري الجوهري: السلالات البشرية، منشأة المعارف، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م، ص٣٦٦.

(٢) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٤١م.ص٥٧-٥٩؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٦ ص ٢٠٥-٢٠٦.

العنصر الصنهاجى الذي تنتمي إليه مجموعات كبيرة من أقطار أفريقيا السوداء الغربية[١].

ويمكن تناول الموضوع من خلال الآتي:

أولا: طرق القوافل التجارية.

ثانيا: السلع التجارية.

وأفصل القول على النحو التالي:

أولا : طرق القوافل التجارية :

لعل من المهم أن نسجل أن أسماء الصحارى الأفريقية لم تتغير عبر الأحقاب على عكس أسماء بعض الجبال والمدن فى الشمال الأفريقي وأحياناً بعض الأنهار المحلية، وعلى سبيل المثال نذكر أسماء فزان والزاب ودرعه وغدامس وبرداوة، فهذه الأسماء وغيرها لم تتغير خلال عصور متطاولة وجلها يحتفظ بالاسم نفسه حتى يومنا هذا[٢].أما طرق القوافل فقد عالجها أكثر من جغرافي ورحالة، وكان فيهم من أعطى المسافات مقدرة بالأميال كابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) الذي اهتم خصوصاً بالطريق الساحلي الممتد من مصر حتى تونس والذي يمر عبر بعض المراكز الصحراوية أو يتفرع باتجاه مراكز صحراوية كغدامس والزاب[٣]، ومن أعطاها مقدرة بالمراحل أو بأيام السير من نقطة إلى أخرى كالبكرى (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، ويأتى

---

(١) **النويرى:** نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق الدكتور: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢٤ ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) **اليعقوبى:** البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨، ص ٩٥-١١٠؛ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض فى الطول والعرض، تحقيق خوان قرينط، تطوان،١٩٥٨، ص٢٨.

(٣) **ابن خرداذبه**، المسالك والممالك (مقتطفات) تعليق الحاج صادوق ، الجزائر ١٩٤٩م، ص٤-٦.

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) بتفصيلات أوفى عن مختلف المراحل التى تقطعها القوافل من مصر حتى القيروان مع ذكر بعض الطرق الفرعية أيضاً(١).

وقد نشطت حركة القوافل التجارية عبر شبكة الطرق الداخلية التى تتصل بعضها بمناطق الصحراء جنوباً، وقد شهدت هذه الطرق نمواً واسعاً خلال الحكم الفاطمى قبل تغريبة بني هلال[٢]، ونذكر منها:

(١)طريق نفوسة إلى زويلة، الذي يبدأ من جادو، ويتميز بقلة مواقعه المائية[٣]، ولكنه لا يخلو من بعض الواحات أحياناً.

(٢)طريق زويلة – سبها إلى ودان[٤].

(٣)طريق طرابلس – ودان الذى تراقبه قبائل هوارة [٥] وأكثر الطرق استعمالاً بالنسبة إلى أقصى الشمال، هو الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية أو المبتدىء من القاهرة إلى جدة ثم المتجه نحو فاس، وهو طريق لم يكن يخلو من مخاطر ولاسيما بعد هجرة بنى هلال خلال الحروب القائمة بين الدول الناشئة التى بدأت تزول، وهناك عدة طرق عبر الصحراء باتجاه الجنوب، منها :

---

(١) **قدامه بن جعفر**، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ليدن، إبريل ١٨٨٩م، ص٢٢٠-٢٢٥.

(٢) كان قدوم قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب من مصر في منتصف القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد . انظر د. وليد الطنطاوي : دور العرب الهلالية في الجهاد في بلاد المغرب والأندلس، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة العدد (٢٢) يونيه ٢٠٠٨م. ص١.

(٣) **البكرى**، المسالك والممالك، تحقيق وتقديم وفهرسة أدريان فان ليوفان وأندري فيري، الدار العربية للكتاب طرابلس، ١٩٩٢، ص١٠-١١.

(٤) المصدر السابق ، ص١١.

(٥) المصدر السابق ، ص١٢.

١-طريق فزان الممتد إلى بلما وكانم بتشاد، وهو طريق نشطت فيه تجارة الرقيق فمهد ذلك لتوغل الإسلام جنوباً، وساعد على ترويج منتجات برقة ومصر ولاسيما المنسوجات منها التى كانت تجد قبولاً بتشاد[١].

٢-طريق غدامس – تادمكة [٢] (بمالى) وهناك طريق يربط تادمكة بالقيروان عبر وارغلة وقسطيلية[٣] ويبدو أن النشاط التجاري الذى عرفته تمبوكتو منذ القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى قد سمح بتقوية التبادل بين هذا المركز وعدد من المراكز الصحراوية الأخرى كتوات وتكدا وكوكو وسجلماسه وغدامس[٤].

٣-طريق ورغلة – تادمكة – كاغو وقد تميز خاصة بتجارة الذهب من أيام الأغالبة والرستميين[٥] وترتبط تاهرت بكاغو من هذا الطريق أيضا، كما ترتبط سجلماسه عن طريق تلمسان التى يسميها اليعقوبى أرض زناته[٦].

---

(١) **البكرى**، المسالك، باريس ، ١٩٦٥م، ص١٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) **ابن بطوطة** ، رحلة ابن بطوطة. القاهرة ، المطبعة البهية، دون تاريخ ، ص ٢٠٦-٢٠٨.

(٤) اليعقوبى: البلدان ، ص١٠٩

(٥) **الرستميون أو بنو رستم سلالة أمازيغية** حاكمة تنتمي إلى المذهب الإباضي حكمت في بلاد المغرب الأوسط وعبد الرحمن بن رستم مؤسس دولتهم بتيهرت. انظر **د. حسين مؤنس:** تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامى إلى الغزو الفرنسى، العصر الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م ص ٢٥٥. الأغالبة : سلالة عربية من بني تميم في إفريقية ومؤسس دولتهم الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، انظر محمود اسماعيل: الأغالبة، (سياستهم الخارجية)، مكتبة وراقة الجامعة، فاس، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص ١٥.

(٦) **اليعقوبى**: البلدان ، ص١٠٩.

٤-طريق درعة – السودان الغربى باتجاه غانا، وتمر وسط قبائل صنهاجة وكان المرابطون يتحكمون فى هذا الطريق خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[١].

٥-طريق تامدولت – أوداغست (غانا) وقد نشطت حركة هذا الطريق منذ عهد الأدارسة[٢] الذين تمكنوا من بسط نفوذهم الذى وصل إلى منطقة زاغة على نهر النيجر والتى سماها ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) ببلاد زاغي بن زاغي[٣].

٦-طريق سجلماسة – السودان وهو من أقدم الطرق الممتدة بين شمال الصحراء ومناطق السودان وقد ساهم فى ترويج تجارة الذهب وهو يتصل بالسودان عبر تغازى التى هى مركز مهم للملح، وكانت مبيعات الملح تتم مقايضة بالذهب كما سجل ذلك ابن بطوطة[٤].

إن هذه الطرق وغيرها لم تبق ثابتة عبر القرون فهناك دواع سياسية وغيرها عملت على تغيير القوافل لمسالكها من وقت إلى آخر ولكن الاتجاهات عموماً بقيت ثابتة ما دامت بعض المراكز لم تفقد قيمتها لسبب أو آخر، ولا ريب فى أن من أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية الصحراوية أو قوتها مدى الضمانات الأمنية التى تتوافر للقوافل . وقد كان على القوافل أن تؤدى إتاوات عن حق مرورها أو دخولها إلى أسواق الأراضى السودانية إضافة إلى حقوق مشابهة تؤدى فى المراكز الشمالية.

---

(١) **ابن خرداذبه:** المسالك ، ص ١٠، ابن بطوطة: الرحلة ، ص١٩٦.

(٢) الأدارسة أول دولة إسلامية مستقلة بالمغرب، مؤسس الدولة هو **إدريس بن عبد الله**. انظر **د. حسين مؤنس:** تاريخ المغرب ص ٣٠٦.

(٣) **ابن خرداذبه:** المسالك ص ١٠

(٤) **ابن بطوطة:** الرحلة ، ص١٣٠.

ولقد نوه الدارسون لتاريخ المغرب فى العصر الوسيط إلى أهمية النشاط التجاري فى نشأة بعض الكيانات السياسية وفى ازدهارها ، بل إن لومبار (Lombard) ذهب إلى أن " كل تاريخ إفريقيا الشمالية وتاريخ الدول التي قامت بها كان يدور حول العمل على السيطرة على المحطات التى تقصدها القوافل"(١)، وتجدر الإشارة إلى أن سعي المغاربة للسيطرة على مصادر السلع لم يكن أحادياً بل كان متعدداً. بناء على هذا التوجه تمكنت المنطقة وبالتدرج من أن " تقوم بدور المحطة بين المشرق من ناحية وبين أسبانيا وصقلية والغرب والسودان من ناحية أخرى، أو بين الأقطار المتمدنة وبين الأصقاع الجديدة"(٢). وبروز هذا النشاط (فى المرحلة قيد الدراسة) قد يدفع للاعتقاد بأن قوة المنطقة الاقتصادية استمدت بالدرجة الأولى من تجارة العبور، الأمر الذى جعل البعض يعتبرها أرض ترانزيت.

ولكن المتمعن فى خلفية المغرب ومدنه من ناحية، وفى بعض آليات تجارة العبور من ناحية أخرى، قد يخلص إلى رأي مغاير، فتجارة العبور اللصيقة بنشأة مدن وأسواق المغرب وشهرتها اقتصر على عملية استبدال سلع الشمال بسلع الجنوب أو سلع الشرق بسلع الغرب. فسكان مدن المغرب وقراه، فضلاً عن سكان واحاته وقصوره لم يكتفوا بنقل السلع بين أقاليم المنطقة، بل توصلوا أيضاً إلى مراقبة بعض السلع(٣)

---

(١) **لومبار، موريس:** الإسلام فى مجده الأول من القرن ٢ إلى القرن ٥ هـ(٨-١١م)، ترجمة إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب ١٩٩٠م، ص١٧٤.

(٢) **لومبار، موريس:** الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت ، دمشق، ١٩٩٨، ص٨٧.

(٣) يمكن التنويه هنا بنظرية الذهب التى وضع أسسها لومبار، ومفادها أن قيام الدول العربية الإسلامية فى عصورها الوسطى وازدهارها اقترن بمدى استحواذها على معدن الذهب= =الثمين ، سواء بالسيطرة المباشرة على المناجم أو بالسيطرة على الطرق التى يسلكها الذهب الآتى من الخارج. انظر الإسلام فى مجده الأول، ص١٦٣.

التى كان لها الفضل ضمن عوامل أخرى بطبيعة الحال فى قيام كيانات سياسية تجاوزت شهرتها حدود المغرب. ليس هذا فحسب، بل وبفضل إقدام المغاربة على تسيير الذهب وتوزيعه يقول جغلول أصبح دورهم يشبه" دور الرئة بالنسبة للتجارة الإسلامية وإلى حد ما بالنسبة للتجارة المسيحية" (١).

وبصرف النظر عن أهمية دور بعض مدن المغرب وأسواقه فى ازدهار أقاليم شاسعة، أو بعث كيانات سياسية ذات نزعة توسعية، فإن الأمر الأكيد أن أولوية نشاط مدن المغرب التجاري لم تقتصر على المدن الكبيرة، فحتى أصغر مدن المنطقة وأكثرها تواضعاً ساهمت فى تمويل شبكة بلاد المغرب التجارية، فمدن طرابلس وقراها والتى لم تحتضن طوال العصر الوسيط كياناً سياسياً – الأمر الذى يجعل عملية البحث عن معطيات خاصة بأنشطة أهاليها أمراً شاقاً – لا يقلل فى حقيقة الأمر من أهميتها ومن أهمية نشاطه التجاري. فالمتمعن فى خارطة المنطقة يشده أمران، يتعلق الأول بإطلالة أجزائها الشمالية على البحر، أما الثاني والأكثر أهمية فيتعلق بتوغل الأراضي الطرابلسية نحو الداخل بحيث تلامس حدودها الجنوبية أراضي بلدان الصحراء الكبرى وأهم مدنها وواحاتها.

ثانيًا: السلع التجارية:

من الضروري إعطاء لمحة عن المعطيات الجغرافية والمناخية التى تميز بها الإقليم فهذه المعطيات حددت وإلى حد كبير إمكانيات الإقليم الاقتصادية وبالتالي نشاط سكانه. فالمصادر تفيد بأن طرابلس تشمل ثلاثة أقاليم جغرافية ومناخية: إقليم الساحل وإقليم الجبل وإقليم الصحراء.

---

(١) **جغلول عبد القادر**: مقدمات فى تاريخ المغرب القديم والوسيط؛ ترجمة فضيلة الحكيم؛ دار الحداثة؛ بيروت ١٩٨٢م، ص٤٤.

وتذهب بعض المصادر إلى أن إقليم الساحل تمتع بوفرة نسبية من المياه أتت من الأمطار والأودية ومن باطن الأرض (مياه جوفية) [١]. ويضاهى إقليم الجبل إقليم الساحل فى وفرة المياه[٢]. أما إقليم الصحراء، وإن تمتعت بعض مدنه وواحاته ببعض المياه[٣]. فإنها قليلة مقارنة بالساحل وبالجبل. وأن تفتقد المصادر الجغرافية العربية الأولى للعديد من التفاصيل واكتفائها بالتنويه ببعض المعطيات العامة التضاريسية والمناخية، فإن تماثل المعلومات التى تقدمها هذه المصادر فى مراحل تاريخية مختلفة تحيلنا إلى القول جزماً بأن الملامح الجغرافية والمناخية العامة لا يطرأ عليها تغيير يذكر حتى يومنا هذا. ولذلك فإن المتمعن فى المراجع الجغرافية الحديثة يكاد يخلص إلى الوضع الذى تلمح له المصادر العربية الأولى[٤].

---

(١) **المقدسي**: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم؛ مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٢٤؛ التيجاني: الرحلة ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، طرابلس، (د.ت)، ص ٣١٠، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨.

(٢) **ابن حوقل النصيبى**: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت،١٩٩٢، ص٩٢؛ الإدريسى: نزهة المشتاق فى اخترق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩؛ج١ ص٢٧٩؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافية، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢،ص١٤٥.

(٣) **البكري**: المسالك والممالك ج٢ ص٦٥٩؛ الإدريسي: نزهة المشتاق،ج١ ص٣١٨؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١٢٧.

(٤) تفيد المراجع الجغرافية الحديثة بأن إقليم الساحل أكثر المناطق استقبالا للأمطار إذ تتراوح كمية المطر السنوية به بين ١٠٠ و٤٠٠م. وتعتبر المنطقة الممتدة من جنزور غرباً حتى الخمس(لبدة شرقاً) أهمها إذ تتراوح كمية الأمطار بها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مم. أما إقليم الجبل والذى يمتد على مساحة طولها ٥٠٠كلم ما بين الحدود التونسية غرباً وساحل البحر المتوسط عند الخمس (لبدة شرقاً) فتنتشر فوقه شبكة من الأودية، وتستقبل مناطقه كميات متفاوتة من الأمطار تتراوح بين ٣٥٠م و١٢٤مم. فى حين أن الإقليم الصحراوي الذي يمتد إلى الجنوب من

ويضاف إلى هذا الاختلاف والتمايز التضاريسي بين أقاليم طرابلس الثلاثة (الساحل، الجبل، الصحراء) اختلاف فى نوعية التربة. وإن قسم ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦م) الأرض فى بلاد المغرب عامة، إلى قسمين: الأول: منطقة التلول وهى زكية المنابت معتدلة الطينة، والثاني: منطقة القفار والتى يسميها الأرض الحرة" لا تنبت زرعاً ولا عشباً على الجملة"(١) فإن المؤلفات الجغرافية الحديثة عند وصفها لإقليم طرابلس تفيد بأن الساحل تغطيه فى الغالب تربة طينية، أما الجبل فتختلط فيه الرمال الناعمة بالطين أو بالمواد الجيرية والتربة السبخية، فى حين أن الصحراء تغطيها الكثبان الرملية إلا فى بعض المواقع، منخفضات الواحات فتعمها تربة ملحية(٢).

إن هذا التباين الواضح فى التربة ووفرة المياه بين أقاليم طرابلس الثلاثة، نتج عنه بالضرورة تنوع فى اقتصادياته. فامتدت فى منطقة الساحل الزراعات البعلية والسقوية من حبوب (قمح وشعير) وأشجار مثمرة(٣). وقد ضاهت منطقة الجبل

الجبل فلا تزيد كميات الأمطار المتساقطة به عن ١٠٠م سنوياً. انظر شرف عبد العزيز طريح: جغرافية ليبيا، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر،١٩٩٠؛ ص ٣٦- ١١٩؛

Depois Jeon Le Djebel Nefousa (Tripplitaine Etude Geographique). La Rose Editeur.paus. 1935.pp.4.47.

(١) **ابن خلدون:** العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٣، ج١ ص١٥١، ١٥٢.

(٢) **شرف عبد العزيز طريح:** جغرافية ليبيا، ص ٢٠، ٢١، ٢٨٧، ٢٨٨؛ ليبيا: عزيز محمد حبيب، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٣، ص ١٠-٥١؛ محمد سعيد سليمان: المصطلحات الجغرافية الليبية، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦،٢٦-٤٠.

(٣) **ابن حوقل:** صورة الأرض، ص٧١؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٢٤، البكرى: المسالك والممالك، ج٢ص٦٥٥؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١ ص ٢٩٧، ٣٠٨،٢٩٨؛ التيجاني: الرحلة، ص ٢١٤، ٢١٩، ٢٥٩؛ القلقشندي: صبح الأعشي فى صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت، ج٥ ص١٠٥.

المنطقة الساحلية فى غراسة الأشجار المثمرة. كما شهدت زراعة الحبوب التى ارتكزت بشكل خاص على الشعير[١]. أما منطقة الواحات فكانت مركزاً لإنتاج التمور[٢].

كما أسهم هذا التباين فى تحديد مجالات النشاط الرعوى بالإقليم ونوعيته. فانتشرت تربية الأغنام، والماعز، والأبقار فى المنطقتين الساحلية والجبلية، أما المنطقة الصحراوية حيث لا تجد الماشية مرعى، كانت الإبل مادة نشاط الرعي الأولى والوحيدة[٣].

وإذ يتراءى لنا أن مختلف هذه المعطيات أدت إلى انقسام إقليم طرابلس إلى ثلاث مناطق متباينة تبايناً كلياً، فإن هذا الأمر لا ينتج عنه بكل تأكيد تجزؤ الإقليم على المستويين الثقافي والاقتصادي، فالدلائل تشير إلى أن العلاقات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية كانت الأهم بكثير من تجزؤ المنطقة سياسياً. لذلك فإن التركيز سينحصر فى نقطتين تتعلق الأولى بإمكانيات بعض مناطق الإقليم ودورها

---

(١) **اليعقوبى**
: البلـدان، ،ص ٣٤٦؛ ابـن حوقـل: صـورة الأرض، ص٩٢؛ البكـري: المسـالك والممالـك، ج٢ ص٦٥٦؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١ص٢٧٩؛ الشماخي: السير ، تحقيق ودارسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٥، ص.ص ١٩١، ١٠٢، ١١٧، ١٢٣، ١٢٩، ١٨٠، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٢٠، ٢٤٩، ٢٦٤، ٢٨٨، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٧٦، ٣٨٨؛ الـوزان: وصـف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٣م، ج٢ص١٠٦.

(٢) **اليعقوبى**: البلدان، ص ١٢، ابن حوقل: صورة الأرض،ص٧٠ ؛ البكري: المسالك والممالك، ج٢ ص.ص ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩ مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليـق سـعد زغلـول عبـد الحميـد، دار النشـر المغربيـة، بغـداد،١٩٨٦م، ص ١٤٥، ٢٤٦؛ الإدريســي: نزهــة المشــتاق فــى اختــراق الآفــاق، ج١ ص٣١٣؛ ابــن ســعيد: كتــاب الجغرافيا،ص١٢٧.

(٣) **محمود ناجي** : تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم، دار الفرجانى، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ،ص٣٣.

فى التجارة المحلية، أما الثانية فتبحث فى أهمية المواد المنتجة محلياً واستغلال الفائض منها فى التجارة الخارجية.

كما أن انقسام إقليم طرابلس إلى ثلاث مناطق جغرافية ومناخية مختلفة، (الساحل، الجبل، الصحراء) كان قد وازاه تنوع فى إمكانيات واقتصاديات المناطق الثلاث وتباينها أيضاً.

ويمكن القول بأن هذا التباين فى الإمكانيات كان وراء قيام حركة تبادل واسعة النطاق، بحيث كانت مدن الساحل تمد الجبل بما لا يتوفر فى أراضيه من منتجات وفى المقابل تستجلب ما تحتاجه منه. وهكذا الأمر مع إقليم الصحراء. فطرابلس التى هى " عديمة المثال فى إصابة الزرع فلا يدرى أن فى معمور الأرض مثلها فى ذلك، وهذا مشهور معلوم"(١)، والتى كان فحصها المسمى سوبجين " يصاب فيه بعض النسل للحبة مائة حبة"(٢)، كانت فيما يبدو تمد غدامس وما يماثلها من مدن الواحات بالقمح. فهذه المادة متعذر الحصول عليها ومرتفعة الثمن فى هذه المناطق(٣). وإذا ما كان القمح يخرج إلى مناطق الصحراء البعيدة، فإنه من البديهى أن يخرج إلى إقليم

---

(١) **الإدريسي:** نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ج١ ص٢٩٨.

(٢) **البكري:** المسالك والممالك، ج٢ ص٦٥٥.

(٣) **الوزان:** وصف إفريقيا، ج٢ ص ١٤٦ ١٤٧؛ يذكر ابن خلدون أن الحبوب " من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره وسنته، فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منها، فى ذلك المصر أو فيما قرب منه لابد من ذلك. انظر المقدمة، دار الجبل، بيروت.د.ت، ص٤٠٢.

الجبل الذى يرتاد أهل طرابلس أسواقه للتجارة[١].وهو الأقرب، والأرجح أن طرابلس تمد إقليم الجبل بالقمح لقلة إنتاجه به مقارنة بالشعير لظروف طبيعية[٢].

أما إقليم الجبل فكان يمد طرابلس " بأنواع الخيرات حتى الخضر والفواكه"[٣]. والأرجح أن مدن إقليم الجبل وفى إطار حركة التبادل مع مدن الواحات – كان أهلها يستبدلون الشعير لوفرته بأراضيهم، " فهو أكثر زروعهم"[٤] بتمور فزان. فيشير الشماخى (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م) إلى أن تمور فزان كان مادة غذائية لأهل الجبل، ففى إطار ترجمته لأبى داود سليمان أحد مشايخ الجبل يقول إن هذا الأخير " يأكل تمر فزان فى أكثر أوقاته"[٥].

ويذكر فى موضع آخر فى أثناء ترجمته لأبى سهل البشر بن محمد التند نميري وقد كان تأجراً بأنه إذا " دخل رمضان أعطى طلبته وقرابته تمر جرمة يفطرون عليها"[٦]. وقس على ذلك المحاصيل الزراعية الأخرى. فكثرة الزياتين بمنطقتى الساحل والجبل[٧] فقد كانت مادة للتبادل مع مناطق الجنوب والواحات. ويبدو أن التين

---

(١) **الشماخى:** كتاب،ج١ ص٢٩٣.

(٢) **عفيفي محمود:** أحوال بلاد المغرب الاقتصادية فى القرن السابع الهجرى، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م ص ١٠٧.

(٣) **ابن سعيد:** كتاب الجغرافيا، ص١٤٥.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض،ص٩٢؛ الإدريسي: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،ج١ ص٢٧٩.

(٥) **الشماخي:** السير ، تحقيق أحمد بن سعود السيابى، طبعة وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧، ج١ ص٢٣٢.

(٦)**الشماخي:** السير ج١ ص٢٩٥.

(٧) الإدريسي: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ج١ ص٢٩٧، ٣٠٨، الشماخي: السير، ج١ ص ص ١٠، ١٠٢، ١١٧، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٨٨؛ البكـــرى: المســـالك والممالـــك، ج٢ ص ٦٥٦؛ **القلقشندي:** صبح الأعشي، ج٥ ص١٠٥؛ التيجاني: الرحلة،ص ٢١٤، ٣١٩؛ الوزان: وصف إفريقيا، ج٢ ص١٠٦

التين الذى تميز بإنتاجه جبل نفوسه، كان يخرج منه إلى الآفاق طازجاً ومجففاً فى الغالب(١).

وإن بدا للعيان أن المنتجات الزراعية تمثل المادة الأساسية فى حركة التبادل بين مدن إقليم طرابلس، فإن الإنتاج الصناعي كان له أهمية مماثلة. فيعتبر الزيت أهم الصناعات الغذائية على الإطلاق إذ وجدت معاصر الزيت أينما وجدت أشجار الزيتون، ويوازى هذه الصناعة أهمية صناعة الأنسجة الصوفية التى اشتهرت بها طرابلس وجبل نفوسة(٢) وغيرها من مدن الإقليم حيث توجد تربية الماشية، وكذلك المصنوعات الجلدية التى يحتاجها سكان الإقليم (الأحذية، قرب الماء، السروج،...) فاشتهرت زويلة وغدامس بجلودها(٣)، فضلاً عن ذلك فإن معدن الملح مثل مادة مهمة مهمة فى حركة التبادل بين مدينة طرابلس وبين مختلف مدن الإقليم على الأرجح فطرابلس تتصل بها " سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير"(٤).

تأسيساً على ما تقدم يتضح قيام علاقات تبادل بين مختلف مدن إقليم طرابلس، تمحورت حول استجلاب هذه المدينة أو تلك ما تحتاج إليه.

إن دراسة علاقات مدن إقليم طرابلس ببلدان السودان له ما يبرره ، فالنظرة الأولى فى قائمة السلع الرائجة فى إقليم طرابلس تدفع بالمرء إلى أن يخلص إلى أن

---

(١) كثيراً ما اقترن فى الجبل ذكر جنان أو فدان بذكر شجر التين؛ الشماخي: كتاب السير،ج١ ص ١١٧، ١٢٩، ١٨٠، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٢٠، ٢٤٩.

(٢) **ابن حوقل:** صورة الأرض، ص٧١، يمكن التأكيد على أهمية صناعة النسيج بالجبل من خلال الإشارات التى أمدنا بها الشماخي فى سيره، فغزل النسيج وصناعة الأردية مارسته النسوة على نطاق واسع فى الجبل. السير، ج١ ص ٧١٧، ٢٥٩، ٢٦٩.

(٣) **اليعقوبي:** كتاب البلدان، ص٣٤٥، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص١٤٥.

(٤) **البكري:** المسالك والممالك، ج٢ ص٦٥٤.

هذا الإقليم هو إقليم عبور[١]، ولكن دراسة عملية تبادل السلع بين مدنه من جهة وبين هذه المدن وبلاد السودان من جهة أخرى قد يمكننا من الخروج بنتيجة مغايرة عن تجارة طرابلس الخارجية.

تعد تجارة مدن إقليم طرابلس البعيدة المدى مع بلدان السودان من الأهمية بمكان فى نشاطها الاقتصادى فسعى تجار مختلف مدن الإقليم لممارستها لما تدره من أرباح، فالسلعة التى يتم نقلها من مكان إلى آخر يقول ابن خلدون " تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر فى طريقها. فيقل حاملوها ويعز وجودها. وإذا قلت وعزت أثمانها... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفة الناس وأكثر أموالاً لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة الخطرة..." [٢] ولقد عكست هذه الأهمية شبكة المواصلات، الطرق التى تخترق المنطقة، وتصل المدن الطرابلسية بمدن ما وراء الصحراء. وقد أسهبت النصوص فى تلك المسافات الفاصلة بينها. فزويلة تبعد عن مدينة كوار خمس عشرة مرحلة[٣] وبينها وبين بلد كانم أربعون مرحلة[٤]. ومن هذه المدينة (زويلة) يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم[٥]. وكان تجار

---

(١) وما يصدق فى حقيقة الأمر على هذا الإقليم يكاد ينسحب على بقية أقاليم المغرب. فعبد القادر جغلول يذهب إلى أن قوة المغرب الاقتصادية فى القرون الوسطى تكمن فى سيطرته على أهم الطرق التجارية – وهي طريق الذهب– أكثر مما تكمن فى الإنتاج الحرفي والزراعي. ويفيد لومبار بأن الذهب الذي يدخل بلاد المغرب "لا يبقي في المغرب وإنما يمر به فقط... إلى مناطق الإنتاج الكبيرة التى تعمل لتجارة التصدير" . الإسلام فى مجده الأول، ص١٧٤.

(٢) **ابن خلدون:** المقدمة، ص٤٣٩.

(٣) **اليعقوبي:** كتاب البلدان، ص٣٤٥؛ الاصطخري: مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٤٠؛ البكري: المسالك والممالك، ج٢ص٦٦٢.

(٤) **البكري:** المسالك والممالك،ج٢ ص٦٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢ ص٦٥٧.

مصراتة(سويقة بنى مزكود) يدخلون عبرها إلى بلاد السودان[١]. كما يدخل إلى بلاد السودان من ودان، وفزان وتحديداً إلى كوار[٢]. أما غدامس فمنها يدخل إلى تادمكة وبينهما أربعون مرحلة[٣]. كما تنفذ زالة على بلاد السودان[٤]. وتعتبر جادو أيضاً ممراً إلى بلاد التكرور[٥]، وتتدفق عبر هذه الطرق سلع بلاد السودان وأهم ثرواتها الطبيعية الطبيعية على حد تعبير ليفتسكى (Lewick) الرقيق والذهب إلى مدن إقليم طرابلس وشمال الصحراء[٦].

فالنسبة للرقيق يشير اليعقوبى (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) إلى أن أهل زويلة " يخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم... "[٧] أما الإصطخري (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى)، فيفيد بأن أكثر الخدم السود يأتي من بلاد السوان

---

(١) Lewicki Tadeusz, "La Repartition Geographique des proupemens ibad.tes dans I'afrique du Nord au moyemage" In Rocznik Orientalistyczny. TXX1.1957.p.321.

(٢) **البكرى**: المسالك والممالك،ج٢ ص٦٦٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق،ج١ ص٣١٢.

(٣) **البكـرى**: المسـالك والممالـك، ج٢ ص٨٨١؛ مؤلـف مجهـول: كتـاب الاستبصـار، ص١٤٦؛ ويذكر ثيرى (Thiry) أنها بمثابة البوابة للدخول إلى بلاد السودان

Thiry Jaques. Le sahara. Libyen dans l'afrique du Nord du VII an XIV siècle. d'apres les texts arabes. There de doctrat en philosophie et letters. Annee Academique. 1987, 1988. Universite libre de Bauxelles. Faculte de philosopheet letters (Institur de philogie et d'histoire osemvales.p.591

ويفيد الوزان بأن تجار غدامس كانوا أغنياء لإتجارهم مع بلاد السودان، وصف أفريقيا، ج٢ ص ١٤٦.

(٤) **الإدريسي**: نزهة المشتاق، ج١ ص٣١٢.

(٥) **الشماخي**: السير،ج١ ص٣١٢.

(6) Lewicki Tadeusz." Traits d'historie du commece transeharien.marchonds e Missionnaires Ibadtis en Soudan occidental et central au cours des VIII-XII ciecles" In Etnognafia polska.VIII.warsaw.1964

(٧) **اليعقوبي**: البلدان، ص٣٤٥.

إلى زويلة، ومنها يوزع على مختلف البلاد الإسلامية[١]. ويؤكد كل من البكرى وصاحب الاستبصار على جلب الرقيق من بلاد السوان إلى زويلة ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد[٢].

وفزان، وودان كانتا بوابتى بلاد الصحراء وموردين هامين للعبيد. فيذكر ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/٨٧١ م) أن عقبة بن نافع عندما دخلهما فرض على كل منهما ثلاثمائة وستين عبداً[٣]. كما اعتبر جبل نفوسة مركزاً مهماً لتجارة العبيد مع بلاد السودان فيذكر البكرى أن أبا رستم النفوسى كان من تجار أودغست التى كان " بها سودانيات طباخات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر"[٤] كما كان يستجلب الرقيق إلى جبل نفوسة عبر رقلان. ويفيد الشماخى (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م) بمتاجرة أهل الجبل ومنه جبل غريان بالعبيد. فيذكر أن الشيخ إسماعيل الجطالى "نزل [من غريان] ومعه عبيد أراد بيعهم بمدينة طرابلس"[٥]. ولم يشذ أهل غدامس عن القاعدة. فكان تجارها يستجلبون العبيد من تكدا. فابن بطوطة الذي سافر برفقة قافلة كبيرة للغدامسين. من كوكو إلى تكدا– التى يتفاخر أهلها بكثرة العبيد والخدم ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكبير، فقد اشترى خادم مدرب منها بخمسة وعشرين مثقالاً[٦].

---

(١) **الإصطخرى**: المسالك والممالك، ص٤٠، ٤٤؛ Brett Michael."Ifriqiy as a marker fer Saharan trade from the tenth to the twelfth century A.D". in Journal of African History.X3.1969.p.355

(٢) **البكري**: المسالك والممالك،ج٢ ص٦٥٨؛ مؤلف مجهول: الاستبصار ،ص١٤٦.

(٣) **ابن عبد الحكم**: فتوح مصر والمغرب، حققه وقدم له محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ، ، ١٩٩٥م، ص٢٢٢.

(٤) **البكري**: المسالك والممالك، ج٢ ص٨٤٩.

(٥)**الشماخي**: السير،ج١ ص ١٠٥، ١٠٦.

(٦) **ابن بطوطة**: الرحلة ، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص٦٩٧.

وإذا ما أشارت النصوص إلى أن الرقيق يدخل إلى مدن أقليم طرابلس، ومنها يخرج إلى مختلف البلاد الإسلامية، فإنها تفيد أيضاً بأن عدداً منهم يبقى بالإقليم ويستخدم فى العمل الزراعى وفى خدمة المنازل والعمل الحرفى أيضاً. فيذكر الشماخي أن أبا خليل أبي ذر أبان الويغوى قد أباح استخدام العبيد بالليل إن لم تكف خدمتهم فى النهار(١) ويشير فى موضع آخر إلى استخدام الخدم النساء فى الاحتطاب(٢)، وكأيدى عاملة فى صناعة النسيخ. وقد يمتلك شخص واحد عدداً منهم فأم الخطاب إحدى نساء الجبل- على سبيل المثال- "اعتقت ثلاث عشرة جارية كن ينسجن عندها"(٣) وتتأكد أهمية جلب العبيد للخدمة من بلاد السودان من خلال طرح أبي حسان بن أبي عامر على أبي هارون الجلالمى مسألة " جالب الخدم وتسري واحدة فأتت بأولاد سود مثل الزيتون"(٤).

أما الذهب الذى اشتهرت به بلاد السودان(٥). فكان يدخل إلى غدامس من تادمكة التى يقع بها الذهب من بلاد كوغة أكثر بلاد السودان ذهبا(٦). كما كانت جادو تستقبل الذهب الآتى من بلاد التكرور(٧). ويشير الشماخى إلى أهمية تجارة جبل جبل نفوسة مع بلاد التكرور (مصدر الذهب)، فيذكر فى ترجمته لميمون بن محمد بن الفضل سهل أحد رجالات الجبل أنه عندما "جاز عليه ركب التكرور قدم من بلاد

---

(١)**الشماخي**، كتاب السير،ج١ ص١٣٨.
(٢) المصدر نفسه، ج١ ص٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ج١ ص١٧٧.
(٤) المصدر نفسه، ج١ ص٢٤٢.
(٥) **الاصطخري**، المسالك والممالك، ص٤٥.
(٦) **البكري**، المسالك والممالك، ج٢ ص.ص ٨٧٤،٨٧٧.
(٧) **الإدريسي**، نزهة المشتاق، ج١ ص١٨.

السودان أمر بإغلاق الأسواق والبروز للتكرور من أجل الانتفاع بالبيع والشراء"[١] وإن لم يذكر شيئا عن نوع السلع التى جلبها أهل التكرور، فمن المرجح أن الذهب من ضمنها لوجوده بها، كما يدخل الذهب مدن إقليم طرابلس من أودغست التى كان يتردد عليها التجار النفوسيون مثل أبى رستم النفوسى. فأودغست ذات ذهب وفير حتى أن سكانها يتبايعون به، فهو يخرج منها فى هيئة " الذهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتولة"[٢].

وتتأكد أهمية معدن الذهب فى تجارة مدن إقليم طرابلس مع بلاد السودان من خلال ذكر استخدامه فى سك العملة. فقد سك بطرابلس الدينار سنة (٣٦٧هـ/٩٧٧م) وكذلك فى سنوات (٤١٥هـ/١٠٢٤م، ٤٢٥هـ/١٠٣٣م ، ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م) كما سك الدينار بمدينة زويلة أيضاً سنة (٤١٤هـ) وليس بمستبعد أن يستغل الذهب فى صناعة الحلي بالمنطقة لتدفقه عليها[٣].

وإذا ما اعتبر الرقيق والذهب أهم سلعتين سودانيتين تردان على مدن شمال الصحراء فى العصر الوسيط، فإن الشب كما يبدو وازاهما أهمية. فيذكر الإدريسى أن كوار اشتهرت بالشب حتى أطلق عليه الشب الكواري، فهو بالغ الجودة كثير الوجود يتجهز منه فى كل سنة إلي البلاد بما لا يحصى كثرة ولا يقاوم وزناً ومعادنه لا تنقص كبير نقص"[٤].

---

(١) **الشماخي**، السير، ج١ص٢١٤.

(٢) **البكري**: المسالك والممالك، ج٢، ص٨٤٨ ، ٨٥٠.

(٣) **حامد سعيد على**: المسكوكات العربية، مجلة آثار العرب، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، الجماهيرية العدد الثاني، الربيع (مارس) ١٩٩١م، ص٩٩.

(٤) **الإدريسي**، نزهة المشتاق، ج١ ص.ص ٢٩، ١١٦– ١١٧، ١٨.

وإذا ما علمنا بأن تجار إقليم طرابلس كانوا يدخلون بلاد السودان، إلى كوار من ودان، وفزان[١] فإنه يمكن التأكيد على دخول شب كوار إلى هاتين المدينتين الطرابلسيتين. كما يؤكد ثيرى (Thiry) دخول هذه السلعة إلى مدينتى غات، وزويلة أيضاً[٢].

والجدير بالتنويه أن التجارة بين مدن إقليم طرابلس وبين مدن بلاد السودان لم تقتصر على استيراد سلع بلاد السودان المهمة، بل شملت تصدير منتجات الإقليم إليه، فحركة التبادل القائمة بين الطرفين عبرت وبوضوح عن نباهة وحسن تدبير تجار الإقليم. فتجار مدن الإقليم الممارسين للتجارة مع بلاد السودان كانوا على حد تعبير ابن خلدون بصيرين بالتجارة، ذلك أن " التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة، إن في ذلك نفاق سلعته. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بأعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض... فتكسد سوقه وتفسد أرباحه.. فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا، فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجارة من تناقلها، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك... "[٣].

ويعد الملح أهم السلع التى يدخلها التجار إلى بلدان السودان.. إذ أن " المسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً، إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج ..." [٤] ولأهمية هذه المادة كانت تستبدل عادةً بوزن ممائل من الذهب. فيذكر البكرى أن " تجارة أهل كوكو بالملح، وهو نقدهم يحمل إليهم من بلاد

---

(١) **البكري**، المسالك والممالك، ج٢ ص٦٦٠؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١ص٣١٢.

(2) Thiry. Le Sahara Libyen.p.540

(٣) **ابن خلدون**: المقدمة، ص ٤٣٩ – ٤٤٠.

(٤) **ابن بطوطة**: رحلة ابن بطوطة، ص٦٨٠.

البربر"[١]. ويمكننا القول بأن طرابلس كانت إحدى أهم المناطق التي يحمل منها الملح إلى بلاد السودان. فطرابلس تتصل بها " سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير"[٢]. كما يفيد التيجانى بأن " بقصر صالح السبخة المفضل ملحها على جميع السباخ"[٣]. وكان هذا الملح يدخل إلى أودغست التى كان يؤمها تجار نفوسة– حتى إن عدداً منهم قد استقر بها[٤] – ومنها إلى غانة، فيشير ابن حوقل إلى ذلك بقوله:" وحاجتهم (غانة) إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به. وربما بلغ حمل الملح فى دواخل السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلاثمائة دينار"[٥] وكان لملك غانة على حمل الملح " دينار ذهب فى إدخاله إلى البلد ودينارن فى إخراجه"[٦].

وكانت بلدان السودان تستجلب ما تحتاجه من مواد غذائية واستهلاكية والتى لا تتوفر فى أراضيها. من مدن شمال الصحراء. فسكان الصحراء " يمر على أحدهم العمر الطويل ولا يرى على يده خبز إلا ما يحمله التجار الواردين عليهم من بلاد المغرب"[٧] فكان القمح والتمر، والزبيب يجلب إلى أودغست " من بلاد الإسلام. وسعر القمح عندهم فى أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل، وكذلك التمر، والزبيب"[٨]

---

(١) **البكري:** المسالك والممالك، ج٢ص٨٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١ص٦٥٤.

(٣) **التيجاني:** الرحلة، ص٢٠٦

(٤) **البكري**، المسالك والممالك،ج٢ ص٨٤٩.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ٩٨.

(٦) **البكري**، المسالك والممالك، ج٢ ص٨٧٤.

(٧) **شيخ الربوة**، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي؛ كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣١٥.

والزبيب"[١] وكذلك مدينة كوكو التى لا يعرف أهلها من المنتجات غير القطانى، والسمسم، وقصب السكر وسائر الفواكه إلا ما يجلب إليها من مصر وبلاد المغرب من تمر، وزبيب[٢]. وأن لا تُحدد من أى المواضع فى بلاد الإسلام والمغرب تستجلب مدن بلاد السودان ما تحتاجه من مواد غذائية، فإنه تأسيساً على ما ذكر من تردد التجار بين مدن إقليم طرابلس وبين بلاد السودان يمكننا القول جزماً بأن الحبوب والتمور فضلاً عن الزيت، كانت مواد جد مهمة فى حركة التبادل بين المنطقتين .

ولا تقتصر السلع الواردة من مدن إقليم طرابلس إلى بلدان السودان على منتجات المنطقة الزراعية، بل كانت المنتجات الصناعية أيضاً مادة أساسية فى عملية التبادل فتمثل الثياب سلعة تجارية مهمة تصدر إلى بلدان السودان، ويمكن اعتبارها والأطعمة من أهم السلع على الإطلاق، خاصة بالنسبة لتجار جبل نفوسة، فهى عندهم "مما يدخل للتجارة"[٣] فغزل النسيج وصناعة الأردية كانت مشتهرة بالجبل، فكانت طيقان الأكيسة الفاخرة الزرق والكحل النفوسية[٤] تخرج منها إلى أودغست التى التى يتجهز إليها بثياب مصبغة بالحمرة والزرقة[٥]، فمن الصوف يقول ديبوا (Depois) تنسج الوزرة وهى قطعة كبيرة من القماش الأبيض أو الأسمر (البنى) التي يلتحف بها بدل البرنس، وهو لباس مخصوص بجبل نفوسة. فوزر جادو ونالوت كانت مادة للتجارة [٦] كما كانت الأكيسة والأقمشة الصوفية تحمل من

---

(١) **البكري**، المسالك والممالك، ج٢ص٨٤٩،.

(٢) **ابن سعيد**: الجغرافيا، ص.ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) **الشماخي**، كتاب السير، ج١ ص٨١.

(٤) **ابن حوقل**: صورة الأرض، ص٧٢.

(٥) **البكري**، المسالك والممالك، ج٢ص٨٥٠.

(6)Depois, Le Djebel nefousa. P132

طرابلس لوفرتها بها[١]. وكذلك من زويلة إذ أن مبايعة أهلها مع تجار بلاد السودان بثياب قصر ممر[٢]. تعد الجلود الغدامسية المشهورة سلعة لا تقل أهمية عن الثياب. فهى تدخل إلى تادمكة وغيرها من بلدان السودان[٣] وكذلك الجلود الزويلية[٤].

وكان العمل بالتجارة يستوجب الخروج بسلع ضرورية إلى بلاد السودان فتجار مدن إقليم طرابلس، كانوا يحملون إلى بلدان السودان بضائع من إنتاج محلي (ملح، حبوب، تمور، زيت، ثياب، أقمشة، جلود ...) ويجلبون سلع للاستهلاك المحلى (العبيد، الذهب..) بالإضافة الى أهمية تجارة العبور إلى اضطلعت بها مدن إقليم طرابلس، حيث تخرج عبرها سلع الصحراء إلى المشرق والمغرب وشمال المتوسط (خاصة الذهب والعبيد)، وسلع هذه الأخيرة من أقمشة حريرية وقباطى مصر وثياب الخز والكتان والثياب المرسية إلى بلاد الصحراء، فإن تجارة مدن إقليم طرابلس كانت فى حقيقة الأمر أكبر من مجرد تجارة عبور[٥].

ولما كانت الصحراء والمناطق المجاورة لها تختلف إنتاجا بحسب البيئة والتربة ومدى الوعى الاجتماعي، فقد كان ذلك يفتح فرصاً للتكامل فى الإنتاج كما كان لا يخلو من فوارق قد تبلغ حد الفقر المدقع أولاً بينما ترتفع إلى درجة الثراء الواسع أو النسبي ثانياً، وهكذا فإن صحراء الصومال واريتريا كانت منطقة بالغة الفقر، يسكنها أفراد "البجه" الذين وصفهم الاصطخري فى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بأنهم " أصحاب أخبيه شعر، أشد سواداً من الحبشة، فى زى العرب، لا قرى لهم ولا

---

(١) **ابن حوقل**، صورة الأرض، ص٧٢.

(٢) **البكري**، السمالك والممالك، ج٢ص٦٥٨.

(٣) **مؤلف مجهول**، كتاب الاستبصار، ص.ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) **اليعقوبي**، كتاب البلدان، ص٣٤٥.

(٥) **إبراهيم فخار** : تجارة القوافل فى الصحراء الكبرى، ودور التجار الليبيين فى حضارة الصحراء الكبرى، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، يناير ١٩٨٤م، ص١٨.

زرع، إلا ما ينتقل إليهم من مدن الحبشة واليمن ومصر والنوبة[١]، وأهم ما يعتمدونه فى ميدان التبادل هو الجلود التى يتم تصديرها إلى اليمن عن طريق ميناء زيلع[٢]. وتناول اليعقوبى قبل قرن تقريباً من الاصطخرى موضوع أهل البجه تناولاً مقتضياً حيث قال" كانت عاصمتهم بقلين التى يقصدها تجار مسلمون[٣] ولاشك فى أنهم عرب مصريون أو عرب من شبه الجزيرة وكذلك تميزت منطقة البجه بإنتاج الذهب[٤] الذى وضع الفاطميون يدهم عليه، وكان أهل البجه ينتشرون فى بلاد النوبة أيضاً على أن تجارة الذهب عرفت ازدهاراً عظيماً فى المناطق الممتدة فيما بين أسوان بمصر حتى وادى العلاقي الذى هو من أهم مناجم الذهب فى العصر الوسيط، وقد أقيمت هناك مدينة حقيقية فى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادى استقر بها عرب من اليمامة بعائلاتهم. وتعاونت معهم عناصر سودانية من المنطقة. وكانت عيذابه على شاطىء البحر الأحمر مركزاً لتصدير التبر والعاج[٥].

وبالإضافة إلى مناجم وداى العلاقي تمكن العرب من الاتصال بأفريقيا الشرقية من جهة الجنوب فى وقت مبكر واستطاع تجارهم فيما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثانى عشر الميلاديين على الأرجح أن يحتكروا تجارة الذهب فى جنوب شرقي أفريقيا مما مكن الفاطميين من الحصول على موارد مهمة من عمليات استيراده وترويجه ترويجاً كانت العملة الفاطمية فيه لها السيادة على المحيط الهندى فى القرن الحادى عشر الميلادي[٦].

---

(١) **الاصطخرى**، المسالك والممالك. ص٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) **اليعقوبى**: البلدان ، ص٩٠.

(٤) **الإصطخري**: المسالك ص٤٢.

(٥) **اليعقوبى**: البلدان ص٨٩.

(٦) **بوفيل**: تجارة الذهب ص١٨.

أما معدن الذهب بأفريقيا الغربية فيظهر أن سكان الشمال الأفريقى والغزاة الخارجيين لم يضعوا أيديهم عليها مباشرة قبل نهاية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ولاسيما فى عصر أحمد المنصور السعدى. ولكن التجارة كانت تتسع فى مراكز قريبة من هذه المناجم، عن طريق القوافل القادمة من ورغلة أو سجلماسة، بل بدأت تجارة الذهب عن طريق المحورين تتسع آفاقها وتبرز تاريخها منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، وكان محور ورغلة ينتهى إلى كاغو بمالى، وهو يتصل فى الوقت نفسه بخط تاهرت وخط القيروان. أما محور سجلماسة فيتجه تدريجياً عبر الساحل ويتصل بأوداغست ولكننا نعرف أن القوافل السودانية كانت تتولى نقل الذهب إلى بنغازي لتتبادل مادة الملح. ويتحدث ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى عن تعامل السودان بالملح فى بنغازى حيث يقول : وبالملح يتصارف السودان، كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به. وقرية تغازى على صغرها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر "[١].

وإذا كان المرابطون قد استطاعوا أن ينشئوا أهم عملة دولية فى أيامهم، فقد كان ذلك بفضل مراقبتهم للمحورين التجاريين الممتد أحدهما من سجلماسة والثانى من تامدولت وكلاهما ينتهى إلى المراكز القريبة من مناجم الذهب، ومن الأكيد أن الموحدين بعدهم لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على المناطق التى يقطنها صنهاجيو الصحراء ويراقبونها ولذلك استعاضوا عن واردات الذهب الضخمة بإيرادات الموانئ والمراكز الداخلية والأسواق حيث رفعوا من قيمة الضرائب وليس معنى هذا أن القوافل قد توقفت عن إمداد أسواق المغرب الكبير بالذهب ولكن المواجهة الصلبة التى أبداها

([١]) **ابن بطوطة:** الرحلة ، ص١٩٢.

بنوغانية المرابطون ضد الموحدين أضعفت من حركة التبادل بين الشمال والجنوب عبر الصحراء[١].

ولم يكن التعامل فى السودان الغربى مقصوراً على الذهب بل كانت بعض المناطق تستخدم الفضة أو النحاس، كما أن قوافل تكدا كانت تذهب سنوياً إلى مصر بقصد تبادل السلع ولاسيما المنسوجات المصرية منها، وتقع تكدا فى اتجاه طريق توات الذى يتصل بغات ثم بمصر[٢].

واعتمدت الصحراء الليبية على إنتاج الواحات وتربية المواشي وتجارة الجلود، وكانت برقة والمراكز الإنتاجية التابعة لها تدر على الدولة العباسية من الخراج والرسوم ما يناهز أربعين ألف دينار وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى هذه المنطقة فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى وما بعده[٣].

وهكذا وجدت تجارة الإبل سوقاً رائجة فى الأقطار المجاورة جنوباً والتى احتكرتها القبائل العربية مدة طويلة ولاسيما منذ الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر. وقد وجد الحسن الوزان فى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي آثاراً لهذا النشاط[٤].

وكان سكان الصحراء الليبية يجلبون التوابل من أقطار السودان، إضافة إلى المنسوجات أما تجارة الرقيق فكانت من أسس التبادل التجارى بين الصحراء وأقطار السودان ووصف الاصطخرى فى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أهالى السودان بشدة السواد بالنسبة إلى سكان النوبة والحبشة والبجة والزنج[٥].

---

(١) **بوفيل:** تجارة الذهب ص٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) **اليعقوبى:** البلدان ، ص٩٦ ،٩٧.

(٤) **انظر: ابن الوزان** : وصف أفريقيا ص ١٠٩.

(٥) **الاصطخري:** المسالك ص٣٥: **اليعقوبى:** البلدان ص٩٨.

وتعد زويلة مركزاً ذا أهمية بالغة فى تجارة الرقيق وتبادله خلال العصر الوسيط وتخصصت فى تجارة الرقيق الذى ينتمى إلى أقطار السودان وكانت تزود السوق الأفريقية[١] ونلاحظ أن الأفارقة السود دخلوا فى جيوش الشمال الأفريقى فكانوا فى جند الزيريين والمرابطين والحماديين وغيرهم، ومن محور سجلماسة – السودان كانت الجوارى السوداوات يجلبن إلى السوق الأندلسية، كما وجد الرقيق الأسود طريقه إلى أقطار المشرق، بالإضافة إلى الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من دول البلقان وشمالي إسبانيا وفرنسا وغيرها. ونلاحظ أن عدداً غير قليل من ملوك الشمال الأفريقى كانوا من أمهات سوداوات أو زنجيات، بل إن بعض الزعماء الشعبيين من أصل سودانى كأبي يزيد الذي قاد الثورة ضد الفاطميين وكمؤسس دولة بنى مدرار عيسى بن مزيد[٢].

وكان طريق تادمكة غدامس يعجّ بالقوافل التجارية التى تنتقل بمنتجات وواردات غدامس إلى المراكز الواقعة فى هذا المحور، أو تنقل منتجات السودان إلى غدامس. وهذا المحور كان منطقة ثرية بالمعادن التى يتم ترويج منتجاتها بغانا ولاسيما بعض الصخور الملونة التى تجد قبولاً كبيراً بهذه البلاد[٣].

وقد تحررت غدامس مثل مراكز أخرى ليبية من هيمنة حكام أفريقيا لتجد نفسها ملزمة بأداء ضرائب لبعض رؤساء القبائل، دون أن يحد هذا من نشاطها التجارى مع بلاد السودان، وقد تحدث ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عن مرافقته لقافلة كبيرة من الغدامسيين[٤] من كوكو على نهر النيجر إلى تكدا، وأثار انتباه ابن بطوطة توفر المواد الغذائية بهذه المنطقة ولاسيما الأرز

---

(١) **البكرى**: المسالك، ص١١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٩.

(٣) المصدر نفسه ، ص١٨٢.

(٤) **البكرى**: المسالك ، ص١٨٢..

منها الذى كان إنتاجه جيداً فى المناطق السودانية، مثلما كانت غدامس نفسها تنعم بإنتاج كبير من التمر حتى القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي وكان المورد الغذائى الرئيسى للسكان فى هذه الحقبة وبعدها بكثير[١].

وعندما نذكر أثر سكان الصحراء فى العمليات التجارية خلال العصر الوسيط فلابد من أن نضع نصب أعيينا أثر الطوارق الذين يكتنف أصولهم الغموض والأساطير وهم على أية حال بدو رحل أو سكان واحات. وقد كوّنوا عبر العصور مجموعات تجارية فى المراكز التى يتنقلون فيما بينها، ويؤدى بعضها إلى ساحل العاج بينما اشتغل أكثرهم فى الرعي واتصفت حياتهم بالترحل بمساعدة العناصر السودانية التى ترتبط كل مجموعة منها بزعيم قبلى منتخب يدعى أمينوكال. ولاريب فى أن اليعقوبى عندما تحدث عن أهالى مجتمع لمطة وهم أصحاب الدرق اللمطية البيض، كان يعنى مجموعة الطوارق الذين كانوا فيما بين زويلة وأوجلة فأجدابية، على أن لمطة كنا نجدها أيضاً فى منطقة السوس الأقصى من المغرب ولها المميزات نفسها، وكذلك نرى ابن الفقيه الهمذانى (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) معاصر اليعقوبى يؤكد على ميزات الدرق اللمطية المصنوعة بهذه المنطقة ويذكر طريقة الاحتفاظ بها لمدة طويلة[٢] وكانت هذه الدرق تجد أسواقاً رائجة لسد احتياجات التجهيزات العسكرية لدى سكان المغرب الكبير وفى أقطار السودان، وكان لمطة المغرب مدينة حقيقية تتوفر على صناعات محلية بالإضافة إلى إسهامها قبل المرابطين وأيامهم فى عملية تسويق المصنوعات والمنتجات المغربية ونقلها إلى أقطار السودان عبر الطريق الساحلي للصحراء الغربية وكانت كذلك أغمات القريبة من مراكش والتى اتخذها المرابطون عاصمة قبل بنائهم مراكش تقوم بمهمة التسويق ونقل المنتجات إلى أقطار السودان

---

(١) **اليعقوبى:** البلدان ، ص٩٨.

(٢) **ابن الفقيه الهمذانى،** البلدان، مقتطفات الحاج صادوق. الجزائر، ١٩٤٩، ص٣٢.

الغربى. فقد كانت قوافل التجار الهواريين من أغمات، تنطلق إلى هذه الأقطار محملة بقناطير النحاس وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف الأحجار الكريمة والعطر والتوابل والآلات الحديدية حيث كان التاجر الواحد يتوفر على ما بين سبعين ومائة جمل محملة بالبضائع(١).

ومن المحتمل أن تكون بعض المنتجات قد تتجه عبر المحيط الأطلسى إلى أقطار أفريقيا الغربية من أغمات عن طريق مرسى قوز القريبة منها(٢) وكان ذهب بامبوك بمملكة غانا أهم ما تجلبه القوافل المغربية فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين(٣).

وفى أعقاب العصر الوسيط كانت جنى من مناطق السودان الغربى تمثل أحد المراكز التى يتوجه إليها محور سجلماسة، فقد كانت تصنع الثياب القطنية التى يربح تجار جنى أموالاً طائلة منها ثمن الملف والنحاس والأسلحة التى يتم تسويقها عن طريق القوافل المغربية وكانت هى نفسها غنية بمنتجاتها الفلاحية والمائية كالأرز والشعير والمواشي والسمك(٤).

وأهم ما كان يجلب من الأقطار المغربية، الملح والزجاج والقرنفل والمصطكى ونبات تاسر غينت البرى الذى يستعمل للبخور، ونشطت قوافل الصحراء عبر المغرب الكبير خلال القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادى فى تحقيق تبادل واسع النطاق مع سائر الإمبراطورية المالية فى ظل أسرة كيتا، ولاسيما فى عهد منسا

---

(١) **ابراهيم حركات**، النظام السياسى والحزبى فى عهد المرابطين. ص٣٢.

(٢) **البكرى**: المسالك ، ص١٥٣.

(٣) **بوفيل**: تجارة الذهب ص٢٢.

(٤) **ابن بطوطة**: الرحلة ، ص١٩٦.

سليمان الذي كانت له مع هذه علاقات جيدة بحكومات الشمال الأفريقى حتى مصر[١].

وقد ظل الخوارج عموماً يتحكمون فى أهم النقاط الاستراتيجية بالصحراء الشمالية مدة طويلة. ومنذ وقت مبكر نجدهم مثلاً فى زويلة ومزاته وورغلة والزاب. كما نجد الصفرية فى درعة خلال القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادي وفى ضواحى فاس ومنطق سجلماسه، وامتد الوجود الخارجى إلى السواحل الشمالية أيضاً فى طرابلس ونفوسة[٢]، بل إن ابن بطوطة وجد قوماً من الأباضيين فى صحراء مالى[٣] شمالاً ولكن المذهب المالكى استطاع أن يكتسح تدريجيا كل المجموعات الإسلامية فى الأقطار السودانية[٤].

وفى عهد الفتوح الأولى أى بدءً من عهد عقبة بن نافع عرف الأمويون أهمية المراكز الداخلية فى الصحراء الليبية فلم يكتفوا بتوجيه وفود رسمية للحصول على ولائها بل وجهوا إليها حملات عسكرية قوية مثلما حدث فى منطقة الزاب شمالاً وهذا يفسر رد الفعل لدى السكان باعتناقهم للمذهب الخارجى وكذلك عرف الأدارسة قيمة الطريق الصحراوى من أوائل القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي فأنشئت مدينة تامدلت جنوب منطقة السوس[٥] . وقامت تاهرت الرسمية بمهمة مشابهة عن طريق سجلماسة وورغلة، ولكن حتى القرن الثالث لا يزال أثر الذهب والرقيق محدوداً بانتقاله إلى الأسواق الشمالية عبر منطقة المغرب الكبير ولاسيما من القيروان حتى المحيط، وفى القرن الرابع نشطت حركة التبادل عبر الطريق الصحراوى من سجلماسة حتى

---

(١) **مفتاح الرباصي:** العلاقات بين بلاد المغرب ص١٨.

(٢) **ابن خرداذبه،** ص ٨" الهمزانى، ص٣٢" اليعقوبى: البلدان ، ص٩٧.

(٣) **ابن بطوطة:** الرحلة ، ص١٩٦.

(٤) **مفتاح الرباصي:** العلاقات بين بلاد المغرب ص٣٣.

(٥) المصدر السابق ص١٨.

مصر، مروراً بورغلة وقفصة ثم الطريق الساحلى الليبى، إضافة إلى حركة التبادل عن طريق البحر بين هذه الأقطار وبعض البلاد الأوربية كإيطاليا بينما يقوم الحماديون بتنشيط حركة التبادل مع أوربا والمشرق عن طريق مينائي الجزائر وبجاية[١].

كما أن المرابطين عند انطلاقهم فى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي من رباط السنغال اتخذوا اتجاههم من طريقين صحراويين تماماً، أولهما باتجاه سجلماسه مروراً بمالى، والثانى باتجاه أغمات عبر موريتانيا الحالية، وفى عهدهم حلت مدينة " نول لمطه " محل تامدلت وهما متقاربان[٢].

وقد عرفنا آنفاً أن الموحدين لم يبسطوا سلطتهم على الصحراء لمدة طويلة على الأقل نظراً إلى تراجع أغلب المرابطين إليها والثورة الطويلة الأمد التى أعلنها منهم بنو غانية، ولذلك انصب اهتمامهم أولاً على الطريق البحرى كما دلت على ذلك مراحل فتوحهم ومع هذا فلا ننسى أثر تلمسان فى التبادل مع الصحراء منذ عصر الادريسى غير أنها شهدت أزهى عهودها فى ظل بنى عبد الواد فكانت ترتبط بعدة طرق، أحدها باتجاه وجدة وفاس والثانى باتجاه سجلماسه والثالث باتجاه تاهرت التى فقدت قيمتها عملياً قبل بنى عبد الواد من الوجهة السياسية[٣].

وفى ظل الحفصيين نجد من أهم الطرق الصحراوية طريق الواحات الليبى المتصل بكاغو ، بينما نشطت غردادية باتجاه السودان دون أن تزحزح ورغلة تماماً من مكانتها فى التبادل مع أقطار السودان[٤].

---

(١) **إبراهيم محمد** : الهجرات والقوافل ص٦٣.

(٢) **عز الدين عمر موسى**: دراسات إسلامية غرب إفريقية ص٤٣.

(٣) **بروفنسال**: رسائل موحدية ص١٢١.

(٤) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٨٨، يسري الجوهري: السلالات البشرية ص٥٣؛ عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب إفريقية ص ٦٤-٦٥.

وتنشط الحركة التجارية عبر الصحراء منذ منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عن طريق غرداية وسجلماسه وطريق سوس، وكلها تتجه جنوبا نحو أقطار السودان الغربى، فغرداية تشحن منتجاتها ومنتجات السودان إما عبر الطريق الليبى الصحراوى نحو مصر وإما إلى مينائى بجاية والجزائر، وتتصل غرداية أيضاً بطريق جديد هو طريق تبلبالا الذي يتصل أيضاً بسجلماسة وكلاهما يسير باتجاه السودان، وطريق سجلماسة شمالاً ينتهى بفاس، فميناء سبته أو موانئ المحيط[1].

(1) إن هذا النشاط الدائب الذى عرفه النصف الشمالى من القارة الأفريقية خلال العصر الوسيط لم يتوقف فى الواقع مع الوجود العثمانى ولكنه ضعف بالنسبة إلى إمداد الأسواق الخارجية عبر الموانئ نظراً إلى الصدام المتواصل بين القوى الأوربية والعثمانية عبر المحيط، ولكن التبادل عبر الصحراء نفسها حتى مصر لم يتوقف. أما أثر سجلماسه فقد انتهى تقريباً بعد استيلاء السعديين على أقطار السودان الغربى وحل محلها طريق تارودانت عبر الصحراء الغربية منذ مطلع القرن السابع عشر حتى وقوع الغزو الاستعمارى فى القرن الماضى.

بعض المصادر والمراجع

أولا : المصادر

ابـن الأثيـر: عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم عبد الواحد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).الكامل فى التاريخ، تحقيق الدكتور. محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م.

الإدريســـى: أبـو عبـد الله محمد بـن محمد بـن عبـد الله بـن إدريـس الحمـودى (ت ٥٥٨هـ/١١٦٣م). نزهـة المشـتاق فـى اختـراق الآفـاق، مكتبـة الثقافـة الدينيـة، القاهرة، (د. ت).

البكرى: أبو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)المسالك والممالك، الـدار العربيـة للكتـاب، تـونس، ١٩٩٢م. معجـم مـا اسـتعجم مـن أسـماء الـبلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دى سلان، الجزائر، ١٨٥٧م.

ابـن خردذابـة: أبـو القاسم عبيد الله بـن عبـد الله (ت حوالى ٣٠٠هـ/٩١٢م). كتـاب المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).

ابن خلـدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت ٨٠٨/١٤٠٦م). تـاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ابـــن ســـعيد المغربـــى: أبـو الحسـن علـى بـن موسـى بـن سـعيد المغربـى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م). بسـط الأرض فـى الطـول والعـرض، تحقيـق خـوان قـرينط، تطوان،١٩٥٨م.

ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/٨٧١ م). فتوح مصر وأخبارها، تحقيق د. على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

ابن الفقيه الهمذانى: أحمد بن محمد الهمذاني (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) البلدان، مقتطفات الحاج صادوق. الجزائر، ١٩٤٩،

قدامة بن جعفر: الكاتب البغدادى (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م). نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة. ليدن، إبريل ١٨٨٩.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م). نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق الدكتور. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح(ت نحو ٢٩٢هـ/٩٠٥م) البلدان، تحقيق دى غوية، مطبوع مع الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩٢م

ثانيا: المراجع:

بروفنسال "ليفى": مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٤١م.

بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة الهادى أبو لقمة – محمد عزيز ، بنغازي، جامعة قاريونس، ١٩٨٨م.

الشماخى: أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م). كتاب السير، تحقيق أحمد بن سعود السيابى، طبعة وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته من الفتح الإسلامى إلى الغزو الفرنسى، العصر الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م.

عزيز محمد حبيب : ليبيا: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٣

محمد سعيد سليمان: المصطلحات الجغرافية الليبية، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦.

محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبه (سياستهم الخارجية)، مكتبة وراقة الجامعة، فاس، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

محمود ناجي: تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم، دار الفرجانى، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م

لوت هنري :لوحات تسيلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبري قبل التاريخ ، ترجمة أنيس زكي حسن الطبعة الاولى (بيروت ١٩٦٧)ص ١٤٥-١٦٦ .

يسري الجوهري: السلالات البشرية، منشأة المعارف، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م

ثالثا: الرسائل الجامعية:

عفيفى محمود إبراهيم : أحوال بلاد المغرب الاقتصادية فى القرن السابع الهجرى، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م

مفتاح يونس الرباصى: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو (من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين الثالث عشر إلى السادس عشر الميلاديين، دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥م.

رابعا : الدوريات:

إبراهيم فخار:تجارة القوافل فى الصحراء الكبرى، ودور التجار الليبيين فى حضارة الصحراء الكبرى، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، يناير ١٩٨٤م.

إبراهيم محمد أحمد بلولة: الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبري وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، مجلة دراسات دعوية، طرابلس ، ليبيا، العدد٩، فبراير ٢٠٠٥.

لوت هنري : لوحات تسيلي: الرسوم الصخرية في الصحراء الكبري ، في كتاب الصحراء الكبري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ١٩٧٩م.

وليد علي الطنطاوي: دور العرب الهلالية فى الجهاد فى بلاد المغرب والأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي – مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة العدد (٢٢) يونيه ٢٠٠٨م.

خامسا: المراجع الاجنبية:

Depois Jeon: Le Djebel Nefousa (Tripplitaine Etude Geographique). La Rose Editeur.paus. 1935.

Lewicki Tadeusz,: "La Repartition Geographique des proupemens ibad.tes dans I'afrique du Nord au moyemage" In Rocznik Orientalistyczny. TXX1.1957.

Lewicki Tadeusz: " Traits d'historie du commece transeharien.marchonds e Mis-sionnaires Ibadtis en Soudan occidental et central au cours des VIII-XII ciecles" In Etnognafia polska.VIII.warsaw.1964

Thiry Jaques.: Le sahara. Libyen dans l'afrique du Nord du VII an XIV siècle. d'apres les texts arabes. There de doctrat en philosophie et letters. Annee Academique. 1987, 1988. Universite libre de Bauxelles. Faculte de philosopheet letters (Institur de philogie et d'histoire osemvales.